الأستاذة: خميسي

محاضرة السيرة الشعبية:

تمهيد:

تعد السيرة الشعبية أحد أهم أشكال الأدب الشفوي الذي يعكس حياة المجتمع ومخزونه الثقافي عبر الحكايات والأحداث التاريخية أو البطولية، وهي نصوص متوارثة شفاهيا من جيل إلى جيل تحمل قيمة معرفية وثقافية وتوظف اللغة الشعبية في التعبير عن مواقف الإنسان ومصيره، تطلق على هذه السيرة أحيانا السيرة البطولية أو السيرة الشعبية إذ تُركز غالبا على بطولات الأبطال أو الأمراء أو الشخصيات التاريخية المرموقة، مع إبراز صفات الشجاعة والحكمة والصبر، وقد تتقاطع السيرة الشعبية مع الحكاية الشعبية أو الملحمة الشعبية، لكنها تختلف عنها بكونها قائمة على شخصية محددة وأحداثها المرتبطة بها مباشرة، وليست مجرد سرد للأحداث العامة أو القصص التوضيحية ومن هنا يمكن القول إن السيرة الشعبية هي سرد شفوي أو مكتوب يسجل حياة شخصية بارزة في المجتمع مع تمثيل قيمه وأخلاقه ومعاييره، وهو ما يجعلها وسيلة لفهم التراث الشعبي، ونمط التفكير الجماعي، كما تعكس تفاعل الجماعة مع التاريخ والحياة اليومية، وتحافظ على الهوية الثقافية للأمة عبر الزمن، ومن هنا يمكن طرح الإشكال ما هي السيرة الشعبية؟ وما هي أبرز مقوماتها؟

مفهوم السيرة الشعبية:

يعد مصطلح السيرة الشعبية من المصطلحات الغنية بالدلالات، إذ تتنوع معانيه بحسب السياق الذي يستخدم فيه، والطريقة السردية التي يقدم بها الحدث، فالسيرة ليست مجرد نقل للخبرة أو الحكاية، بل انعكاس لطريقة حياة القوم وعاداتهم، إذ تتجلى السيرة الشعبية في العلاقة الوثيقة بين الطريقة والسنة، فالسنة هنا لا تعني الزمن فقط، بل تشير إلى نمط سلوك وأسلوب متبع في الحياة، بما يجعل السيرة مرآة لتقاليد القوم ومثالاً للطريقة المستقيمة والمحمودة، إضافة إلى ذلك تحمل السيرة بعداً تاريخياً وأدبياً في الوقت نفسه، فهي تسجل أحداث الأولين وتحفظها وهو ما يمنحها صفة الموروث القديم، ويبرز قدم النصوص المرتبطة بها، ومن هذا المنطلق فإن السيرة تجمع بين جانب الخبرة أي سرد الأحداث والحكايات وبين جانب القيم الذي يعكس

القيم والتقاليد المجتمعية، بهذا المعنى تصبح السيرة الشعبية وثيقة حية للذاكرة الجماعية، فهي تحافظ على الخبر التاريخي والرموز الثقافية وترتبط بين الحاضر والماضي من خلال نقل أحداث وتجارب الأجيال السابقة بأسلوب سردي متماسك ومحدد.

فالسيرة في الاصطلاح، يتجلى في تحديد موقعها بين التاريخ والأدب؛ فهي تلتقي بالتاريخ من انشغالاتها بشخصية مهمة ذات مكانة فاعلة في الأحداث ضمن سياقها التاريخي، وتلتقي بالأدب من حيث تصويرها لشخصية الكاتب وانطباعاته وميولاته الذاتية، وتشكل الثقافية الاجتماعية من الوجود تماما. وبالتالي لا تعترض عملاً معلومةً بالمعنى الدقيق للوثائق الثابتة بقدر ما هي بناء سردي تتداخل فيه الحقيقة التاريخية مع الحسّ الإبداعي.

يحتل فن السيرة مكانة بارزة ضمن خريطة الأجناس الأدبية لما ينطوي عليه من قدرة على تمثيل التجربة الإنسانية في بعدها الفردي ضمن سياقاتها التاريخية والاجتماعية، ورغم ظهوره المبكر في الأدبين العربي والغربي، فإن هذا الفن لم يبقى جامدًا بل عرف تطورًا تدريجيًا أكسبه مرونة وجمالية ورونقًا فنيًا ينسج وروح العصر، مع محافظته في الوقت ذاته على سيماته العامة، وقد تعددت أشكاله وأنماطه فتنوعت بين السيرة الذاتية، والسيرة الغيرية، والسيرة الشعرية، وجعلت جميعها من التاريخ مادة خصبة لتشكيل خطابها السردي، ويعد أدب السيرة من أقدم الفنون الأدبية إذ ارتبط بظهور الوعي الإنساني بذاته وبالآخر، وبرز في الثقافة العربية متوازيًا مع الملاحم والأساطير اليونانية والرومانية الأمر الذي جعله يتأثر بها ولا سيمة احتفاظه بعدد من الخصائص الملحمية، كما ينظر إلى السيرة بوصفها تسمية اصطلاحية قريبة من مفهوم الرواية الشعبية، إذ إن لفظة السيرة عربية الأصل وتحيل في معناها الحرفي إلى تصوير الحياة، وفي هذا السياق تشير **لالا بيرموفا** إلى أن مصطلح السيرة جاء مقابل لمصطلح الأجنبي (Biography) المشتق من الأصل اليوناني (Bio) بمعنى الحياة و(Graphy) بمعنى الكتاب أي كتابة، حياة شخص مع وهو ما يؤكد البعد التمثيلي والتوثيقي الذي يميز هذا الجنس الأدبي[1].

وفي العصور المتأخرة شهد فن السيرة تحولات نوعية، تَمثل في بروز نمط سيردي ذي طابع جماعي، عرف بالقصص أو السيرة الشعبية التي ارتبطت بالذاكرة الجماعية، وبالوجدان الشعبي، وقد تزايد الاهتمام بهذا اللون الأدبي، فحظي بعناية كبيرة من الباحثين والدارسين في الشرق والغرب، لما ينطوي عليه من قيمة تاريخية وثقافية وفنية، كما ذاعت السير وانتشرت أسماؤها عبر ثقافات متعددة واتخذت تسميات مختلفة بحسب السياقات الحضارية التي ظهرت فيها، إذ نجد لها نظائر في الصين وفي مناطق آسيا الوسطى وفي اليابان وفي الهند مما يدل على طابعها الإنساني المشترك، وقدرتها على العبور بين الثقافات[2].

فالسيرة إذن هي لون أدبي يجمع بين التوثيق التاريخي والإمتاع القصصي، ويهدف إلى دراسة حياة فرد من الأفراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته في أبعاده الإنسانية والاجتماعية والفكرية، وهي بهذا المعنى مزيج من المدونات الوثائقية والتاريخية من جهة ومن العواطف الإنسانية الجياشة والأحاسيس النابضة من جهة أخرى، الأمر الذي يمنحها طابعاً أدبياً متميزاً يتجاوز مجرد التسجيل الواقعي، ولعل هذا التداخل بين التاريخ والوجدان هو ما يجعل السيرة أكثر حيوية ونضجاً من التاريخ الخالص، باعتبارها لا تكفي بسرد أحداث بل تسعى إلى تأويلها واستنباط بعض دلالاتها الإنسانية[3].

غير أن مصطلح السيرة لم يظل منفرداً في الحق الدلالي، إذ زاحمته لفظة أخرى وهي لفظة **ترجمة**، الأمر الذي أفضى إلى نشوء أزمة اصطلاحية في تاريخ هذا الفن، مما جعل من الضروري توضيح الفواصل الدقيقة بين المصطلحين، والكشف عن خصوصية كل منهما، وقد استعمل بعض الدارسين مصطلح **السيرة** بمعنى **الترجمة**، وهو ما ذهب إليه **يحيى عبد الدائم**، إذ يرى أن لفظتي **السيرة والترجمة** كانت تدوران حول معنى واحد وهو تاريخ الحياة، أو تاريخ حياة شخص ما، كما يؤكد أن لفظ السيرة كانت أسبق في الظهور وفي الاستعمال

1- ينظر : لالا بيرموفا، فن السيرة في الادب العربي، مجلة كلية الأدب، باكو، أذربيجان، ع 101، 2012، ص550.
والطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، دار المعارف، مصر، 1987، ص 522.

2- ينظر المرجع السابق، ص 551.

3- أنيس المقدسي، الفنون الأدبية في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للماليين، بيروت، لبنان، ط3، 1199 ص،552.

من لفظة الترجمة. ونجد الفكرة نفسها عند **محمد عبد الغني** الذي يرى أن الترجمة بهذا المسمى تطلق غالبا على النص الذي لا يطيل فيه الكاتب السرد، فإذا طال السرد واتسعت المادة وتعمق التحليل، تحولت من ترجمة إلى سيرة، وعلى الرغم من هذا التقارب في وجهات النظر بشأن تحديد مدلول كل من المصطلحين، فإن هذا التقارب لا يصمد عند محاولة تفريق الاصطلاحي الدقيق بينهما، ففي هذا السياق يذهب **يحيى عبد الدائم** إلى أن كلمة الترجمة دخلت إلى العربية عن طريق اللغة الآرامية وأن استعمالها الاصطلاحي لم يستقر إلا في أوائل القرن السابع للهجر، حيث استخدمها **ياقوت الحموي** في كتابه **معجم الأدباء** للدلالة على حياة شخص ما، غير أن الاصطلاح الحديث قد استقر على ضرورة تمييز بين **السيرة والترجمة** مع الإقرار في الوقت ذاته بأنهما يشتركان في الغاية العامة ويمكن النظر إليهما بوصفهما وجهين متكاملين لعملة واحدة يختلفان في السعة والأسلوب ودرجة التحليل[4].

أنواع السيرة:

لقد تجاوز مفهوم السيرة حدوده الضيقة ليفتح على آفاق أوسع وذلك بفعل التطور الذي عرفه عبر مراحل تاريخية متعاقبة مما أفرز نوعا ملحوظا في أشكاله وأنواعه وجعله جنسا أدبيا متميزا عن غيره من الفنون الأدبية، ومن أبرز هذه الأنواع: **السيرة الغيرية والسيرة الذاتية**

1-السيرة الذاتية:

وتعد من أكثر الأجناس تطورا وانتشارا في الآداب الحديثة إذ يرجع بعض الدارسين ميلادها الحقيقي إلى الإرث الروماني قبل أن تحظى باهتمام بالغ في مختلف الآداب العالمية بما في ذلك الأدب العربي، وقد تناولها الباحثون بالدراسة والتحليل فساقوا لها تعريفات ومفاهيم متعددة غير أن هذا التعدد لم يفضي إلى اتفاق نهائي حول تعريف الجامع يحدد معالمها وحدودها بدقة، ويعزى ذلك أساسا إلى ارتباطها الوثيق بأجناس أدبية أخرى مجاورة في هذا

---

[4]- ينظر: يحيى إبراهيم عبد الدائم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د، ط)، 1975، ص31.

وينظر: محمد عبد الغني حسن، التراجم والسير، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، ص 1191.

السياق يعبر **جورج ماي** عن هذه الإشكالية بقوله: إننا ما زلنا في فجر السيرة الذاتية ولم يحن الوقت بعد للوصول إلى اتفاق عام حول مفهومها في إشارة إلى حداثة هذا الجنس وتعقيد حدوده الاصطلاحية.

ويعرف **عبد العزيز الشرف** السيرة الذاتية بأنها تعني حرفيا كتابة حياة إنسان كما يراها صاحبها لا كما هي في الواقع الموضوعي، إذ يسعى الكاتب إلى تحويل حياته إلى قصة يتولى هو نفسه روايتها بقلمه وفق رؤيته الخاصة وتجربته الذاتية، أما **يحيى عبد الدايم** فيذهب إلى تعريفها بوصفها الترجمة الفنية التي يسوقها صاحبها في صورة مترابطة تقوم على الوحدة والاتساق في البناء والروح بأسلوب أدبي قادر على نقل صورة وافية ومتكاملة عن تاريخ شخصية ما، ويبرز من خلال هذه التعريف التركيز على الخصائص الفنية التي ينبغي أن تتوفر في السيرة الذاتية ولا سيما وحدة البناء والأسلوب الأدبي غير أن الملاحظة النقدية لتعريف **يحيى عبد الدايم** تكشف عن إعلائه من شأن الأسلوب الأدبي على حساب البناء الفني الدقيق، وهو ما يجعل السيرة الذاتية وفق هذا التصور تقترب من جنس الرواية أكثر من اقترابها من السيرة بمفهومها الصارم، ومن ثم تتداخل السيرة الذاتية مع أشكال أدبية أخرى مثل: اليوميات والمذكرات والاعترافات ورواية السيرة وأدب الرحلة في إطار شبكة من الأجناس المتجاورة والمتداخلة

كمت تعددت أنماط السيرة لتشمل أشكال أخرى، من بينها **السيرة الشعرية والسيرة الغيرية والسيرة النبوية والسيرة الشعبية** وهي الصنف الذي يهمنا في هذه المحاضرة.

السيرة الشعبية:

التي تعد قياساً بغيرها من الأنواع السيرة الأخرى حديثة العهد من حيث التناول الاصطلاحي والدراسة، إذ شاع استعمال هذا المصطلح في النصف الثاني من القرن العشرين، ويطلق هذا المصطلح عادةً على نصوص سردية طويلة نشأت في إطار المشافهة وتناقلها الروات والمنشدون في ساحات المدن الكبرى وفي المجالس والأرياف قبل أن تنتقل إلى حيز التدوين والطباعة مع ظهور المطابع الحديثة، وقد أسهم هذا الانتقال من المشافهة إلى الكتابة

في تثبيت نصوصها ومنحها صفة الانتشار الواسع، ويذهب **فاروق خرشيد** شأنه شأن عدد من الباحثين إلى اعتبار السيرة الشعبية مجموعة من الأعمال السردية الطويلة ذات السيمات الفنية المتقاربة والرؤى الجمالية المتشابهة، بما يجعلها تتشكل جنس أدبيا متميزا بذاته فهي لا تخضع لقوانين الرواية الحديثة، كما لا تنطبق عليها في الوقت نفسه خصائص المرحلة الشعرية الأمر الذي يحول دون تصنيفها ضمن أي منهما ومن ثم تعد **السيرة الشعبية** عملا أدبيا مستقلا له قوانينه وخصوصيته الجمالية، ومنه وبما أن موضوع محاضراتنا السيرة الشعبية فوجب البحث عن أهم خصائصها الفنية تمهيدا للانتقال إلى دراسة سيرة الأميرة ذات الهمة.

خصائص السيرة الشعبية:

1- تعد السيرة الشعبية فن أدبياً مستقلاً بذاته له قواعده وأصوله وبناءه الفنية الخاص وهو ما أهلها لتكون إحدى البذور الأولى التي ما هدت ظهور فن الرواية والقصة الطويل في الأدب العربي ويتجلى ذلك بوضوح في نماذج مثل سيرة عن طريق الشداد التي تعد من أبرز السيرة ذات الطبع التاريخي وقد أسهمت في ترسيخ تقنيات السرد المطول بناء شخصية البطل.

2- لا تعد السيرة الشعبية مجرد حكاية طرقاً بغرض الإمتاع والتسلية فحسب، بل هي خطاب أدبي ذو أهمية محددة يساهم من خلالها الراوي أو المؤلف إلى تمرير قيم جمالية وأخلاقية مستعيناً بقالب فني خاص يجعل النص أكثر قرباً من وجدان المطلق وضميره الجمعي وغالباً ما يربط البطلة بالجماعة التي يمثلها إما من خلال القرية أو القبيلة بوصفها رمزاً للحرية والانتماء أو عبر الرمز الذي يحمله سواء أكان ذا بعد تاريخي أم شعبي.

3- تحظى المرأة في السيرة الشعبية بمكانة محورية لا تقل أهمية عن مكانة الرجل بل إن بعض السيرة الشعبية تقوم ببنيتها السردية كاملة على بطولة امرأة كما هو الحال في سيرة **الأميرة ذات الهمة**، التي تعد نموذجاً دالاً على الحضور النسوي الفاعل، وهي موضوع هذه المحاضرة.

4- تتسم السيرة الشعبية في الغالب بطبيعتها النثرية مع وجود استثناءات قليلة من بينها السيرة **الهلالية** في بعض رواياتها كما تتميز بلغاتها السهلة ممزوجة بالإيقاعات خاصة يساعدها على الحفظ والتداول الشفهي ويسر انتقالها عبر الأجيال.

5- يؤدي الشعر داخل السيرة الشعبية وظائف متعددة إذ يستخدم للاستدلال والاستشهاد والتعزيز الإقناع كما يرد أحيان بوصفه وسيلة للتحفيز ورفع المعنويات ولاسيما في مشاهد المعارك والبطولات.

6- تقدم السيرة الشعبية صورة شاملة عن البنية الاجتماعية للمجتمع العربي وتكشف عن طبيعة الصراعات التي عرفها سواء كانت صراعات داخلية أو خارجية كما تتجلى في سيرة **الأميرة ذات الهمة** التي تصور الصراع بين العربي والرومي في إطار السرد الملحمي.

7- تشمل السيرة الشعبية تعاليم الدين الإسلامية إذ يصور بطل في الغالب فارسا عربيا مسلما يدافع عن دينه وينصره في مواجهة الوثنية وغيرها من الديانات مما يعكس البعد العقائدي والرمزي الذي تنهض عليه هذه السيرة في الوجدان الشعبية.

سيرة الأميرة ذات الهمة:

تُعد سيرة الأميرة ذات الهمة من أبرز السير الشعبية العربية وأطولها، وقد احتلت مكانة متميزة في الذاكرة الثقافية العربية لما تحمله من أبعاد بطولية وإنسانية وحضارية، وهي سيرة ذات طابع ملحمي، تشكّلت عبر التداول الشفهي قبل أن تُدوَّن، وتستند إلى أحداث تاريخية متخيَّلة مستلهمة من الصراع العربي–البيزنطي في الثغور الإسلامية، غير أنها لا تسعى إلى توثيق التاريخ بقدر ما تعبّر عن رؤية الجماعة الشعبية للبطولة والقيم.

أولا: نسب الأميرة ذات الهمة ونشأتها:

تنتمي الأميرة ذات الهمة إلى قبيلة عربية عريقة، وتختلف الروايات في تحديد نسبها، غير أنها تُجمع على أنها وُلدت في بيئة قبلية محاربة، جاءت ولادتها أنثى في مجتمع يقدّس

الذكورة، فشكّل ذلك صدمة لعائلتها، وكادت تُقتل لولا تدخل أمها .منذ طفولتها، بدت عليها علامات النجابة والقوة، فمالت إلى الفروسية ومجالسة الفرسان وسماع أخبار الغزوات.

ثانيا: التكوين البطولي وبروز الشخصية القيادية:

نشأت ذات الهمة نشأة صلبة، فتمرّست على ركوب الخيل وحمل السلاح، وأظهرت قدرة فائقة على القتال والتخطيط العسكري، لم تكن بطولتها جسدية فقط، بل عقلية وأخلاقية، إذ عُرفت بالحكمة والعدل وحسن التدبير .فرضت وجودها في مجتمع ذكوري، وأثبتت أن البطولة لا ترتبط بالنوع بل بالكفاءة.

ثالثًا: الزواج القصري ومحنة الأمومة:

أُجبرت ذات الهمة على الزواج من فارس لا يليق بها فكريًا وأخلاقيًا، وكان هذا الزواج مصدر شقاء لها، أنجبت ابنها عبد الوهاب، لكن المؤامرات والدسائس أدت إلى التفريق بينها وبينه، تُعد هذه المرحلة من أكثر مراحل السيرة مأساوية، حيث تجتمع البطولة بالقهر الاجتماعي.

رابعا: العودة الى المحاربة وقيادة الجيوش:

بعد محنتها، تعود ذات الهمة إلى ساحة الجهاد، فتقود الجيوش وتشارك في معارك ضارية ضد الروم .تتجلى في هذه المرحلة حنكتها العسكرية ودهاؤها الحربي .ويبرز إلى جانبها البطل البطّال، فتتشكل ثنائية بطولية قائمة على التعاون والوفاء.

خامسا: عبد الوهاب وصراع القيم:

يكبر عبد الوهاب فارسًا شجاعًا، لكنه يمر بتجارب قاسية تصقل شخصيته .يلتقي بأمه دون أن يعرفها، في مشهد درامي بالغ الدلالة، قبل أن تنكشف الحقيقة .يتحول هذا اللقاء إلى لحظة وعي أخلاقي تعيد ترتيب القيم الإنسانية والبطولية.

سادسًا :الصراع والخيانة:

لا تخلو السيرة من صور الخيانة والمؤامرات، سواء من الأعداء أو من الداخل القبلي،

غير أن ذات الهمة تتجاوز هذه المحن بالصبر والثبات، لتؤكد أن النصر الأخلاقي يسبق النصر العسكري.

سابعًا :الشيخوخة والخلود الرمزي:

في نهاية السيرة، تتقدم ذات الهمة في السن، لكنها تظل رمزًا للقيادة والبطولة، لا تموت بوصفها شخصية فحسب، بل تتحول إلى رمز خالد في الذاكرة الشعبية.

خاتمة:

تمثل سيرة الأميرة ذات الهمة ملحمة شعبية كبرى، تعكس تصور الجماعة للبطولة والعدل والقيادة، وتعيد الاعتبار لدور المرأة في التاريخ الشعبي.

إشكاليات وأسئلة موجهة للطلبة (واجب منزلي)

1- ما المغزى العام من سيرة الأميرة ذات الهمة؟

- حلّل القيم التي تكرّسها السيرة مثل البطولة، الصبر، القيادة، ودور المرأة في المجتمع.

2- ما طبيعة هذا النص؟

- حدّد جنسه الأدبي (سيرة شعبية/ملحمة) مع الشرح والتعليل، مع الاستناد إلى خصائص السرد الشعبي.

3- ما العِبرة المستخلصة من النص؟

ناقش البعد الأخلاقي والإنساني للسيرة، وكيف تُقدَّم القدوة من خلال شخصية ذات الهمة.

4- ما الغاية من إعادة إحياء السيرة الشعبية اليوم؟

- بيّن أهمية السيرة في حفظ الذاكرة الجماعية، وتعزيز الهوية الثقافية، وربط الماضي بالحاضر.

5- كيف أسهمت سيرة ذات الهمة في كسر الصورة النمطية للمرأة في الأدب الشعبي؟

الأستاذة: خميسي